الدليل الأنطولوجي وقيمة الحدس في إثبات وجود الله عند القدّيس "أوغسطين"

كحـــول سعـــودي
قسم الفلسفـــــة
جامعة 8 ماي 1945 - قالمة

الملخّـص:

يجب علينا ألاّ ننسى في البداية أنّ فكر القدّيس "أوغسطين" الفلسفي واللّاهوتي يعطينا طريقة تركيبية شاملة وملموسة معا في الوقت الذي تتوجه فيه هذه الطريقة نحو التعليم الأخلاقي والديني مثلما ينبغي أن يتلقاه القارئ المتعلم، وفي ذلك لا يمكننا المسك بالمعنى الدقيق لليقين الفلسفي دون أن يحظر إلى الفكر النظام باكمله. وبالتالي يعرض أوغسطين الخطوط العريضة لمذهبه قبل أي تحليل نفسي وذلك بدراسة معرفتنا للحقيقة في المقام الأول. وهو المذهب الذي يتعلق أيضا بالتقوى التي تستدعي الانقياد للمسيح عليه السلام بوصفه الحقيقة النهائية في نظره. وأكثر من ذلك فإنّ ميتافيزيقاه ترسم لنا الطريق المفضّل من أجل إثبات وجود الله والمتمثل في الدليل الحدسي.

وحول وجهة نظره الأخيرة هذه فإنّ لأوغسطين كتابين أساسيين هما، "المعلم" و"الإرادة الحرة"، يقترح فيهما الإطار العام للدليل الذي كتبه بواسطة نظرية الإشراق، ولكنّه يفترض حضور الإله في الجزء العلوي من النفس بدلا من جعله قابلا للاستدلال. وقال بانّه قد عرض فيه وبكل ما يملكه من قوة طريق العقل نحو الله.

الكلمات المفتاحية : الحدس، الإشراق، المعلم الداخلي، مبدأ الانتظام، مبدأ المشاركة، مبدأ الصعود، نور الحقيقة، الحقيقة الثابتة، العقل.

Résumé:

Il ne faut jamais oublier cependant que, dans saint augustin- étant donnée la méthode synthétique et concrète, tout orientée vers l'instruction morale et religieuse du lecteur- on ne peut saisir le sens exact d'une affirmation philosophique sans avoir présent à l'esprit l'ensemble du système. Ainsi augustin expose une doctrine avant tout psychologique en étudiant notre connaissance de la vérité, mais il touche aussi à la piété en recommandant la docilité au christ-vérité, et plus encore à la métaphysique en esquissant sa voie préférée pour démontrer l'existence de dieu.

A ce dernier point de vue, les deux œuvres augustiniennes (De magistro « le maitre », De libero Arbitrio « le libre arbitre ») réunies en ce volume ne sont pas sans rapports. Augustin propose le cadre général de la preuve par la théorie de l'illumination, mais il suppose dieu présent au sommet de l'âme plutôt qu'il ne le démontre. Il expose en toute son ampleur la marche de la raison vers dieu.

Mots clés: Intuition, Illumination, Le maitre intérieur, principe de régulation, principe de participation, L'ascension, Lumière de vérité. L'immuable vérité, l'intellect.

Summary:

Never forget, however, that in St. Augustine given the synthetic and concrete method, while facing moral and religious instruction of the reader-the exact meaning cannot take a philosophical assertion without having to present the mind the entire system. Thus Augustine outlines a doctrine primarily psychological studying our knowledge of the truth, but it also touches on piety recommending docility to Christ-Truth, and more metaphysics sketching his favorite way to prove the existence of god.

At this point of view, the two Augustinian works (De magistro, De libero arbitrio) collected in this volume are not unrelated. Augustine provides the general framework of the evidence by the theory of enlightenment, but it assumes this god at the top of the soul rather than demonstrates. He exhibited in all its fullness the way of reason to god.

Keywords : Intuition, Illumination, The inner maitre, principle of regulation, principle of participation, Ascension, The light of truth, the immutable truth, mind.

مقدمة:

من البديهي أن يبحث الإنسان عن خالقه، أي عن الكائن الأسمى من ذاته. وهو الموضوع الذي يبدو رئيسيا في فلسفة ولاهوت القدّيس "أوغسطين" (Saint Augustin)(354–430م) مثلما هو محور انشغاله الفكري في حياته كلها. لذا احتلت مشكلة الألوهية نقطة المركز في مذهبه، ومنذ الأسطر الأولى في كثير من مؤلفاته وخاصة "المعلم" le maitre و"الإرادة الحرة" le libre arbitre و"الثالوث" la trinité، يتعلق الأمر

بدراسة هذه المشكلة، فجاء المشروع الأوغسطيني هادفا نحو إثبات وجود الله بالدرجة الأولى.

إنّ دراسة مسألة الألوهية عند أوغسطين تتحرك في مستوى مختلف عن الألوهية عند اليونان بمقتضى انتمائه إلى عصر الثورة المسيحية، وعصر الآباء تحديدا، وفي هذا اعتبر وجود الله بداهة أولى، أو اليقين الأول الذي يعد بديهيا مادام الله هو الوجود الضروري المطلق الذي تصدر عنه كل الكائنات بالخلق، فهو العلّة الأولى للعالم، وهو الموضوع الطبيعي والأول للعقل. حاول فيه أن يعرض براهين وجود الله وصفاته، وعلاقة الصفات بالذات، وغيرها من المسائل التي شكّلت العماد الرئيسي لميتافيزيقاه كلها.
فهل الله موجود؟ وهل وجوده مسالة إيمانية فحسب؟ وبصيغة أخرى: هل وجود الله حقيقة بديهية؟ وهل المسألة قبلية أم بعدية؟

1 – وجود الله:

يرى أوغسطين أنّ الله موجود، بل ويتميز بالوجود المطلق، فهو الوجود ذاته الذي يستمد كل كائن وكل موجود وجوده منه، يقول حول هذه القضية: "... وأي موضع فيّ يتسع له؟ أي موضع يتسع لله خالق السماوات والأرض؟ ربّي وإلهي، ألديّ موضع يتسع لك؟ هل تتسع لك كل السماوات أم تتسع لك الأرض التي خلقتها وأوجدتني عليها؟ ألأنّ كل موجود، عدم، دونك، يتسع لك؟ إذا، ولم أنا الموجود، ولا كيان لي بدونك، أسألك أن تأتي إليّ؟ أنا لم أصل إلى الجحيم، أمّا أنت فموجود فيها. ولو قدّر لي أن اهبط إلى الجحيم لوجدتك هناك " (1). فالله موجود في كل مكان، إنّه الوجود المطلق، أو الوجود المحض الذي لا يتخلله عدم خلافا للمخلوقات القابلة للكون والفساد.

2- وجود الله أسمى من وجود الكائنات:

إذا كان الله موجود بالبداهة عند أوغسطين فهل هو الطبيعة؟

ينفي أوغسطين فكرة وحدة الوجود، فالله ليس الطبيعة، بل هو خالق الطبيعة، لهذا، فانّه مفارق لها. وفي هذا المجال يقول: " سألت الأرض فقالت لي: لست إلهك. كذلك أجابني كل حي على سطحها، سألت البحر وأغواره والكائنات الحية التي تسرح فيه وتمرح فأجابتني: لسنا إلهك (...) سألت السماء والشمس والقمر والنجوم فأجابت كلها: لسنا الإله الذي تبحث عنه، إذ ذاك قلت للكائنات كلها التي تحيط بأبواب حواسي: حدّثيني عن إلهي طالما لست إلهي، قولي لي شيئا عنه، فهتفت جميعا بصوتها القوي: هو خالقنا. كان تأملي فيها سؤالا، وجمالها جوابا " (2).

وعندما اطلع أوغسطين على كتب الفلاسفة لم يجد إلاّ مناقشات سوفسطائية، فلم يجد فيها برهانا كافيا لإثبات وجود الله، وهذه الفكرة نجدها واضحة في قوله: "وتأرجح إيماني بين الضعف والقوة مع أنّي بقيت مؤمنا بأنّك موجود، تعتني بنا(...) قصّرنا بسب ضعفنا عن إدراك الحقيقة بفضل عقلنا وحده، واحتجنا إلى كتبك المقدّسة فأخذت اعتقد أنّه، لو لم يحسن لديك أن نؤمن بك ونبحث عنك بواسطتها، لما كنت منحتها ذاك السلطان في المسكونة كلها " (3). اطلع أوغسطين على كتب الأفلاطونية المحدثة المنقولة من اليونانية إلى اللاّتينية فلم تقنعه، ولم يجد فيها ما وجده في الأناجيل تحديدا، حول الإيمان بوجود الله. وقد تجاوز بالتالي الفكرة القائلة بأنّ الله والطبيعة شيء واحد.

وبتطرقه لاحقا لنفس المسألة يصرّ القدّيس أنسلم وعلى غرار أوغسطين على ضرورة الإيمان بوجود الله، وبأنّه وحده موجود وأنّه هو الذي يوجد، يقول أنسلم: "وحدك إذن، ربّي، موجود، وأنت الذي يوجد.

والحق أنّ الذي يوجد كلية خلاف ما يوجد في أجزائه، والذي يوجد فيه شيء قابل للحركة لا يوجد وجودا كاملا. والذي بدأ من العدم، ويمكن التفكير فيه غير موجود، لأنّه إن لم يعتمد في وجوده على غيره يصبح عدما من جديد (...) لا تحتاج لشيء، وكل الأشياء تحتاج إليك في وجودها وسعادتها " (4).

3- حدس الله (intuition de dieu) :

استخدم القدّيس أوغسطين الأدلة الكلاسيكية في إثبات وجود الله والمتمثلة عموما في البرهان البعدي كالعليّة والغائية، لكن اهتمامه بالدليل القبلي كان فوق كل البراهين، فاعتبر وجود الله حقيقة إيمانية بديهية وقبلية بالدرجة الأولى.

لقد بدأ دليله الحدسي بفكرة الصعود نحو الله (l'ascension vers dieu) انطلاقا من الدرجات الثلاث الأولى للمعرفة وهي: الحواس الخارجية والحس الداخلي والعقل، وصولا بعد ذلك إلى ما هو فوق العقل. والأعلى من العقل هو الحكمة الإلهية المطلقة، ومنه إثبات وجود الله بحكم البداهة.

يسأل أوغسطين صديقه إفوديوس (évodius) قائلا له: هل واضح بأنّك موجود وواضح أيضا بأنّك حي. فهل تفهم وجود حقيقتين مؤكدتين؟ يجيبه افوديوس بأنّه يفهم ذلك جيدا .

هاهي بديهة ثالثة -يقول أوغسطين- وهي العقل (l'intelligence). ومنه لدينا ثلاثة أشياء أساسية: الوجود، والحياة، والعقل. يملك الجماد صفة الوجود، أمّا الحيوان فيملك صفة الحياة، لاسيما وأنّ الجماد لا يحيا والحيوان لا يفهم؛ ولكن من يفهم يحتوي أيضا وبكل يقين على الوجود والحياة. وهذا يجعلنا لا نتردد في القول بأنّ من يملك هذه الأشياء الثلاث أفضل من الذي يحتوي على اثنين أو على واحد فقط. وبما أنّ الحي موجود بالتأكيد، لكنّه بعد

ذلك لا يملك القدرة على الفهم، فأعتقد أنها حياة البهائم. ومن هو موجود فإنّه لا يملك الحياة أو العقل بالضرورة. إذ الجثة مثلا موجودة، لكنها ليست حية مادامت تفتقد إلى اثنين من بين هذه الأشياء الثلاث، في حين يفتقد الحيوان إلى شيء واحد فقط، ولا يفتقد الإنسان إلى أي شيء منها. ونحن نفترض أيضا أنّ الأفضل من بين الأشياء الثلاثة التي يمتلكها الإنسان هو العقل(5). لكن السؤال المطروح هو: ألا يوجد ما هو أفضل وأعلى من العقل نفسه؟

إنّ البحث في الله يستدعي في نظر أوغسطين الصعود من الأسفل إلى الأعلى، فلا بد من وضع كل موضوع يدرك بحاسة ما كحاسة العين، أو أي آلة جسمانية أخرى، في صنف ما هو موجود فقط. أمّا الحاسة نفسها فهي تنتمي إلى ما هو حي. والسؤال المطروح: ما هو الأفضل، الحاسة أم موضوعها؟ من البداهة أن تكون الحاسة، لأنّ من يملك الحياة أفضل مما هو موجود فقط . وعليه، فكل كائن يتضمن إحساسا أفضل من موضوع إحساسه، وكل كائن يملك العقل أفضل من موضوع تعقّله. ومن جانب آخر نُفضّل الحس الباطن على الحواس الخارجية، لأنّه يوجهها ويحكم عليها، والذي يحكم أفضل من الموضوع المحكوم عليه، وهي قاعدة لا ريب فيها. إذن هناك طبيعة كائنة فقط، دون حياة ودون وعي كالجسم غير الحي، وبعدها توجد طبيعة ليست كائنة فقط، بل هي حية أيضا، لكنها دون فهم، كالنفس الحيوانية؛ ثم تأتي الطبيعة المتميزة بالوجود والحياة والفهم، كالنفس العاقلة لدى الإنسان، إذ لا يمكن إيجاد ما هو أشرف منها، ما دامت تتضمن جسما وحياة و شيء ثالث وهو العقل الذي لا يحتوي على الطبيعة الحيوانية. لكن هل يمكن أن نجد في الطبيعة الإنسانية شيء أفضل وأشرف من العقل؟ لا وجود لذلك إطلاقا يضيف أوغسطين (6).

يصرّح بعد ذلك أنّ المرحلة الأخيرة من منهج الصعود هي القول بوجود ما فوق العقل وهو الله وحده. فإذا اكتشفنا شيئا أسمى وأفضل من الجزء الأكثر تميزاً في طبيعتنا البشرية، أين يكون العقل أدنى منه، فإنّنا لا نتردد حينها في أن نسميه الله. إنّ الله هو الخالد، والدائم، والثابت، بينما الأجسام متغيرة، وحتى العقل نفسه يتصف بالتغير. إذن وبدون مساعدة أي آلة جسمانية، كاللمس والذوق والشم والسمع والبصر، ولا عن طريق أي حاسة دنيا يمكن إدراك الكائن الثابت والأزلي، بل بواسطة العقل ذاته. مع أنّ العقل أدنى من هذا الكائن، وبأنّ هذا الكائن هو ربه وإلهه. إنّه أشرف بكل تأكيد، فلا وجود لكائن أسمى وأفضل من الله لذلك فإنّ وجود الله حقيقة لابد من قبولها، لأنّه لو تصورنا كائنا أعلى وأسمى من هذه الحقيقة، لاعتبرناه بالضرورة هو الله. فلا وجود لكائن أعلى منه، والله موجود بالبداهة، لاسيما وأنّه هو نفسه من يساعدنا على تبرير وجوده كحقيقة أسمى من العقل ذاته (7).

يكتشف العقل صفة التسامي للحقيقة النهائية. إذ يدرك أنّه أمام ما هو أرفع منه ومن الإنسان، وأنّه أمام الخالد والثابت والمستقر والضروري أي أمام حقيقة واقعية(réalité) تمتلك جميع الصفات للإله نفسه. وبتعبير أخر فإنّ الحقائق ثابتة وضرورية، ولا تفهم مثل هذه الصفات إلاّ بشيء يكون مثلها ثابتا وضروريا وخالدا. وعندما يرى العقل الحقيقة فإنّه يرى أمامه قانونا أرفع، وطبيعة ثابتة وخالدة هي الله تعالى (8).

4- الحدس الأوغسطيني والدليل الوجودي عند أنسلم وديكارت:

ويلاحظ على أوغسطين تأثيره الواضح في هذه المسألة على أتباعه من أمثال القدّيس أنسلم، هذا الأخير اعتبر نفسه تلميذا لأوغسطين، لأنّه

استخدم الدليل الحدسي في إثبات وجود الله، والذي أصبح معروفا لديه بالدليل الأنطولوجي (الوجودي)، كما فعل ديكارت بعد ذلك في بداية الفلسفة الحديثة، وفيه يقول أنسلم: " الله موجود حقا، حتى إنّنا لا يمكننا أن نفكر في أنّه غير موجود. إذ لا يمكننا أن نتصور شيئا لا يمكن تصوره غير موجود(...) إذن مالا نستطيع أن نتصور أعظم منه موجود حقا ولا يمكننا تصوره غير موجود " (9). وعليه، فالقول بعدم وجود الله يحمل تناقضا لأنّه لا يمكننا تصور شيء موجود بأنّه غير موجود، وبالتالي فهو موجود لا في الذهن فحسب بل خارج الذهن أيضا، لأنّ ماهو موجود داخل الذهن وخارجه أفضل من وجوده في الذهن فقط.

لقد استعمل ديكارت كذلك البرهان الوجودي، والذي يقول فيه ما يلي: "لم يبق إلاّ فكرة الله وحدها، التي يجب أن ننظر هل فيها شيء لم يصدر عنيّ. وأقصد بلفظ الله جوهرا لامتناهيا، أزليا، مُنزّها عن التغير، قائما بذاته (...) هذه الصفات الحسنى، بلغت من الجلال والشرف حدا جعلني أعتقد، كلما أمعنت النظر فيها، أنّ الفكرة التي لديّ عنها لا يمكن أن أكون أنا وحدي مصدرها. إذن يترتب علينا أن نستنتج من كل ما سبق أنّ الله موجود " (10) . يقول أيضا: " لكن يجب أن نستخلص من كوني موجودا، ومن كوني أحمل فيّ فكرة موجود مطلق الكمال، أي فكرة الله، أنّ وجود الله قد تم إثباته بكل بداهة " (11). ومعنى ذلك هو إثبات وجود الله بالرجوع إلى الأفكار الفطرية كالكمال واللاّنهائي المعبّرة في نهاية المطاف على فكرة البداهة.

5- وجود الله حقيقة بديهية:

من البداهة في نظر أوغسطين أن تكون الحقيقة الثابتة (l'immuable vérité) أعلى من العقل. إذ لا يمكن نفي وجود هذه الحقيقة،

كونها كونية وعالمية وعامة، قائمة عند كل متأمل بكيفية تشبه النور المبهر أثناء الصلاة. إنها شيء عالمي بالنسبة لكل عاقل يملك ملكة الفهم. إنها أسمى من الفكر وليست أدنى منه ولا مساوية له، بدليل أنها لو كانت أدنى منه لكانت أحكامنا غير مطابقة لها. والدليل أيضا على أنّ هذه الحقيقة أشرف من فكرنا هو كونها منبع السعادة والحرية والأمان، فمثلما نرى نور الشمس، ونتوقف إراديا عن النظر إلى الموضوع من أجل التركيز على الشمس ذاتها أين تجد العين متعتها، فإنّ العقل قد يتوجه نحو الحقيقة نفسها ليدرك نورها بدلا من التركيز على الحقائق الجزئية، خاصة وأنّ جمال هذه الحقائق صادر وبالبداهة عن الحقيقة ذاتها (12). يقول القدّيس أوغسطين حول هذه الفكرة: " كذلك، رغم تنوع وتعدد الموضوعات التي يراها الناس بنور الشمس والتي يختارونها للمتعة، فإنّه لا يوجد إلاّ نور واحد وحسب. كذلك رغم تعدد وتنوع الخيرات التي يختارها الناس، فإنّ نور الحكمة نفسها– الذي نقدر على تأمله وامتلاك خيراته– واحد عند جميع الحكماء"(13). ومعنى ذلك هو إثبات وجود حقيقة متعالية وأسمى من عقولنا وأنفسنا، وهي الله؛ وفي هذه الحالة لا يمكننا نفي وجود الله، كما يترتب عن ذلك قبول هذه الفكرة الواضحة والبديهية. لذلك لا يمكننا أن نتصور أشرف وأعظم من الله. يقول أوغسطين حول هذه الفكرة أيضا : "وصوبت جهودي نحو اكتشاف ما بقي من حقائق حتى وجدت ما لا يفسد أفضل مما يفسد؛ فاعترفت بأنك، أيًّا كنت، لا تفسد وبأنّه لا يمكن لنفس أن تتصور ما هو أفضل منك، أيها الخير الأفضل والأسمى(...) كان بوسعي أن أدرك ما هو أفضل منك لو لم تكن غير قابل للفساد"(14). لقد رأينا أنّ الله ثابت ودائم وأزلي غير قابل للتغير ولا الزوال ولا الفساد، فهو أفضل وأشرف، والأفضل هو الأعظم الذي لا نستطيع إلاّ أن

نتصوره موجودا، ومنه فماهيته هي وجوده بالضرورة، أي واجب الوجود بلغة المسلمين.

إنّ اكتشاف الله كنور ثابت وحقيقة جوهرية أدّى إلى شعور أوغسطين بالتأثيرات والقوى الناتجة نحو الحياة التأملية، لأنّ الأمر يتعلق بالتجربة الروحية لمختلف الأفعال بالطبع. كما يتعلق بمنهج الصعود، وهو ليس منهجا افلوطينيا في بنيته العامة، إذ لا نجد شيئا من حساب مراتب درجات الحياة الداخلية عند أفلوطين، والتي نتوجه عبرها نحو الله، كما أنّه لم يتطرق إلى فكرة الثبات الإلهي التي يركز عليها القديس أوغسطين في مذهبه الحدساني. إنّه الإيمان بوجود جوهر روحي، وهذه الفكرة صورة عن الإيمان المسيحي تمتد إلى القول بأنّ إله المسحيين أفضل من إله الفلاسفة. رغم أنّ هذا الاكتشاف نابع مباشرة من قراءته للأفلوطينية (15).

6- الحدس ومبدأ الانتظام:

المرحلة الأخيرة من الدليل الأوغسطيني حول حدس الله (l'intuition de dieu) (16)، والذي يتعلق بإثبات وجود الله انطلاقا من الحقائق الأزلية، وهو مثال ملاحظ بالحدس. وهذا حسب مبدأ النظام (régulation)، حيث يوجد العقل في أعلى هذا العالم الحسي، يستنتج أوغسطين أنّ فوق العقل حقيقة خالدة أزلية وثابتة، تدرك مباشرة دون توسط أي حاسة، وهي وجود الله. والتطبيق الأخير لمبدأ الإنتظام يعني إثبات وجود هذه الحقيقة بواسطة قوانين الأعداد وقواعد الحكمة مجتمعة بالحقيقة الثابتة لاستنباط حكم دقيق لا يعتريه أي شك، وهو هذه الحقيقة الأزلية بالذات أي الله تعالى. ويثبت أوغسطين وجود حقائق أزلية بالمشاركة(par participation)، وحقيقة أزلية بذاتها، وهي لا نهائية وفريدة بما أنّه لا

شيء أسمى فوق الواحد اللاّمتناهي، ومنه يميز بين صنفين من وجود الحقائق الأزلية: الأولى تكون بالمشاركة بواسطة فكرنا، قوامها صورة القواعد المتعددة للأعداد والحكمة؛ والأخرى مطلقة، نابعة من الكلمة (le verbe)، قوامها الصورة الكاملة للاّنهائي أو بساطة الحقيقة الإلهية. لا شيء حقيقي إذن إلاّ بالحقيقة نفسها، إذ كل مشاركة بالأزلي الثابت تفترض بكل بداهة وجود مصدر يملك بذاته الأزلية والثبات بصورة مطلقة، فلا شيء أسمى منه. على أنّ هذه المرحلة الأخيرة بالنسبة لأوغسطين، والمتعلقة بالحدس ليست بحاجة إلى استدلال بالمعنى الحرفي (17). من يستطيع أن يوصل إلى النفس شيئا ثابتا وأزليا غير الله؟ فالله هو الوحيد الثابت والأزلي، في حين كل شيء متغير يستقبل كماله من الكمال الثابت، هذا ما يجعل النفس العاقلة تمتلك رؤية مثلما ترى ذاتها بإشراق حدسي، وهذا توضيح لمرحلة تمثل الفكر الحدسي لأوغسطين القائم على حضور الله في حياة الروح أو النفس، لأنّ الله هو المعلم الداخلي الذي لا يحتاج إلى التبرير الجدلي.

7- الله معلم داخلي:

أصبح الله إذن في داخلي – يؤكد أوغسطين – مصدر علمي، ومنبع النور الذي يدرك به عقلي، يوجد عندما يؤرّقني بنوره، وعندما ينفث فيّ من روحه، وعندما يهبني من لدنه علما، يظهر الله في هذا العالم الشعوري وكأنّه قانونه الأوحد ونسيجه الباطني، أي أنّ الله مرادف للحياة نفسها ومطابق للخبرة الإنسانية وبؤرة الشعور، الله إذن هو ما أشعر به وكأنّه جوهر الحياة، يوجد عندما يكشف عن ذاته في نفسي وأوجد عندما أعيه وأشعر به، وجوده هو إمكانية وجود الوعي الإنساني في ذاته. فالله عند أوغسطين ليس تصورا مجردا تتم البرهنة عليه بحجج فارغة وجدل عقيم، بل هو وجود فعلي في

النفس وفي الكون يراه الناس و يشعرون به، هو حقيقة باطنية يشعر بها كل فرد، ومن ثمّة أصبح المسيح معلما باطنيا موجودا داخل كل فرد، يهبه العلم والنور (18). إنّنا نحدس الله حدسا، فهو ليس في حاجة إلى استدلال، باعتباره النور الذي يغمر النفس البشرية. يقول أوغسطين: " أيها الرب يا من وحدك تسككني في طمأنينة" (19). وهذا يعني وجود الله في النفس. إنه حاضر حضورا حميميا في باطن الإنسان، وفي عمق الحياة النفسية.

وفي هذه الحالة تلعب الذاكرة دورا حاسما، لأنها تشكل وحدة لا متناهية بين الماضي والحاضر والمستقبل. وفي حقيقة الأمر يوجد في الذاكرة فعل الإشراق، لأنّني أشعر من خلال الذاكرة بحضور الله في الأنا، أي بحضوره في النفس ذاتها. وشعورنا بالجمال الإلهي هو شعورنا بالإلهي نفسه لأن الإلهي يتماهى مع جماله (20). يقول أوغسطين بهذا الصدد أيضا: " لقد أحببتك متأخرا أيها الجمال القديم، الحديث، أجل متأخرا، أنت كنت في داخلي وأنا خارجا عن نفسي، كنت معي وأنا لم أكن معك... وسطع نورك فبدّد عماي " (21). لا وجود إذن لما هو فوق العقل إلاّ النور الثابت الذي لا يختلف عن طبيعته فقط. فهو ليس هذا النور العادي المرئي، لأنّه أكثر قوة وحيوية وإشعاعاً. وهو ليس فوق الفكر كالزيت فوق الماء أو كالسماء فوق الأرض. إنّه فوق النفس العاقلة، لأنّه خالقها، وهي أدنى منه لأنّها مخلوقة عن طريقه. فمن يعرف الحقيقة يعرفه، ومن يعرفه يعرف الأزلية. هذه الخطوة الأخيرة تعني الحدس الأنطولوجي المحض الذي يستدعي حياة الإنسان مع عين نفسه ليشعر أنّ الله هو موجهه الوحيد (22).

إنّه البرهان النفسي أو الداخلي الذي استعمله "أوغسطين" حول وجود الله، لأنّ الله هو الأكثر حضورا في أنفسنا وهو ما يقودنا مباشرة من أعماقها نحوه.

لقد اعتبر "أوغسطين" هذا البرهان أكبر دليل على وجود الله، لأنّه يتأسس على حياة الروح كلها. إنّ النفس الحاملة لحقيقة ممكنة، تقتضي ارتباطا وثيقا بالحقيقة الكاملة الثابتة، وهو ما يبرر وجوده. فالنفس في هذا الدليل هي مبدأ الحجة الكافية، والتي لا تشكل المضمون السيكولوجي للتصور فحسب، بل تشير إلى القيمة الميتافيزيقية لفعل المعرفة ككل، والله وحده يفسّر ذلك عن طريق الإشراق، ويفسّر بالتالي حضور جميع الحقائق الكلية في عقولنا (23). ومنه فإنّ اكشاف الله يقع في هذا الواقع الروحاني الذي يشكل جوهر الإنسان في حد ذاته، والذي يتجلّى بداخله نور الحقيقة غير المنطفئ، ومعنى ذلك أنّ العودة إلى الذات تتحقق في نفس الوقت الذي يتحقق فيه اكتشاف الذات الإلهية. تتكشف هذه الذات إذن للعقل بصفات هي من الكمال ما يضطر، إن أمكن القول إلى السمو بما فوق العقل الذي يتفكرها، لأنّ الله نشأ في الوعي الذي أدركه سموه عليه (24).

وهكذا، ليست النظرية الإشراقية نظرية في المعرفة فحسب، بل هي حدس ديني يعني وجود الله في النفس وانكشافه فيها، أي أنّ المسيح هو المعلم الداخلي، وهو وحده معلم الحقيقة، مستقر في الإنسان الباطني مثلما لا حظنا ذلك سابقا.

8- علاقة الدليل الحدسي بقصور اللغة:

المعلم الداخلي عند أوغسطين دليل على وجود الله وهو قائم على استحالة التعبير والإيصال عن طريق اللغة. فعجز اللغة دليل على وجود الله

أيضا، لأّن المعرفة تكون بالحدس لا باللغة، وفي هذا يؤكد أنّ الكلمة لا تنتج إلاّ الاعتقاد (croyance)، ولا تنتج العلم بالأشياء. فنحن لا نستطيع أن نعرف مثلا أغطية الرأس إلاّ بعد رؤيتنا لها، مادام اسمها بالنسبة لنا مجرد صوت، كما لا يمكننا معرفة اسمها معرفة تامة إلاّ بعد علمنا بها. وبالنسبة لقصة الأطفال الثلاث، وكيف تغلّبوا بدينهم وإيمانهم على الملك وألسنة النيران، وأي ثناء توجهوا به إلى الله، وأي تبجيل استحقوه من أعدائهم، فهل تعلّمنا كل هذا بالكلمات فقط؟ الجواب على هذا في نظر أوغسطين هو أنّنا نعلم كل ما تعنيه تلك الكلمات من قبل، فنعلم معنى الاطفال الثلاث والنار والملك والوقاية من النار، وكل ما تعبر عنه هذه الكلمات. أمّا انانياس (ananias)، وازارياس (azarias)، وميسايل (misaél) (25)، فإنّي– يقول أوغسطين – أجهلهم مثلما أجهل السارابال(saraballes) (26). ولمعرفتها فإنّ الكلمات لا تساعدني على ذلك أبدا. واذا حدثت هذه القصة فعلا كما أخبرنا النبي في هذا الزمان فاني أسلّم بها بالإيمان لا بالعلم، تبعا للفكرة القائلة: "إن لم تؤمنوا فلن تعقلوا" (27). ومعنى ذلك كله، أنّ العلم بالأشياء يستدعي الأشياء ذاتها لا كلماتها، كما يستدعي العودة الى الايمان الذي يفتح لنا أبواب التعقل والفهم، وفي هذا يعطي أوغسطين الدور الأساسي للحدس.

إنّ ولوجنا العميق في فلسفة أوغسطين يبين لنا عدم قوة العلامات اللغوية للتعلم. فالأشياء تتمايز عن العلامات، ولايمكن أن تختلط معها؛ فكلمة أسد مثلا مجرد صوت صادر عن الفم، وليس الأسد نفسه، وإن كانت الكلمات ضرورية للفكر كضرورة الغذاء للجسم، إلاّ أنها أدنى منه وأضعف بالنسبة للشيئ المعبّر عنه. كما توجد أشياء نعرفها دون مساعدة هذه العلامات. فاللغة عند أوغسطين لا تعلمنا حقا، بل تذكّرنا فحسب، وما أراد

بنائه هنا هو دور البداهة الداخلية (l'évidence interne) كأساس لكـــــل علم (28).

هاهي إذن قيمة الكلمات: إنها دعوة إلى البحث عن الموضوعات، لكنها لا تقدم لنا معرفة عنها. بل على العكس من ذلك يعلّمني الشيئ الذي أودّ معرفته سواء بالعين أو بأي حاسة جسمانية أخرى أو حتى بالنفس، أما الكلمات فلا تعلمنا إلاّ الكلمات، بل هي أقل من ذلك، ليست إلاّ أصواتا بما أنّ الأشياء ليست علامات ولا ألفاظا (29). وكدليل على ذلك يقول أوغسطين: " عندما تصدر الكلمات، إمّا أن نعرف معناها أو لا نعرف، فإن كنّا نعلمه، فهو مجرد تذكّر وليس علما محصّلا؛ وإن كنّا نجهله، فهو ليس تذكّرا، لكنه وعلى اكثر تقدير دعوة للبحث (30).

صحيح أنّ اللغة في مفهومها الشائع، وتحديدا لوظيفتها العادية هي وسيلة لنقل الأفكار، إذ نتحدث إلى الغير أو نتحدث باطنيا إلى أنفسنا، فإننا نستعمل الكلمة(la parole) للتعبير عن أفكارنا أو للتمييز بين الأشياء، لكن الكلمات في حقيقة الأمر ليست عند أوغسطين إلاّ علامات(des signes)، بل ليست وحدها العلامات، لأن الحركات (les gestes) هي أيضا علامات مرئية كالكلمات التي تعد علامات مسموعة. فما هو دور الكلمة والحركة؟ اللغة ليست وسيلة لتعليم الأشياء، لأنّ محتوى الفكر لا يحدد ضرورة بحضور الكلمات التي تشبه نقل الأفكار (31).

وهكذا يحاول أوغسطين وانطلاقا من مبدأي الانتظام والمشاركة تحليل فكرة الصعود إلى الله عبر درجات الكمالات المخلوقة. وفي ذلك يقدم في كل مرة دليلا صارما يضع وجود الله بالبداهة، مع مروره بفكرة الشعور بالحقائق الأزلية، وهو طريق حياتنا الباطنية، وصولا إلى أعلى درجة، وهي

رؤية وتأمل الحقيقة الأسمى المكتشفة، والمتمثلة في الحكمة المستقرة في ذواتنا.

وفي هذا الدليل الحدسي نجد تشابها دقيقا بين أوغسطين وليبنز وكذلك مالبرانش، وذلك على غرار التشابه بين أفكار أوغسطين، وأفكار أنسلم وديكارت. وهو دليل على استمرار النزعة الاوغسطينية وعدم انقطاعها في الفلسفات الحديثة والمعاصرة. فهذا ليبنز يؤكد أنّ الوجود تابع لفكرة الله، بمعنى الكائن الأكثر كمالا والأعظم على الإطلاق أو الأعظم مما يمكن تصوره، لأنّه يتضمن كل الكمالات والتي من بينها الوجود. ويضيف ليبنز أنّه حتى لو كان الله ممكنا، سوف تكون لدينا دائما فكرة عنه، فيتبع ذلك أنّه موجود بالضرورة (32).

أمّا الفيلسوف مالبرانش فيصرح أنه لا يوجد إلاّ الله القادر على الفعل والخلق، والذي ينكشف في الفكر يقول حول وجود الله: " لا يوجد الاّ الله الذي نراه برؤية سريعة ومباشرة. لا يوجد إلاّ هو، القادر على تنوير الروح بواسطة جوهره الخالص(...) إنّه معلمنا الوحيد الذي يستقر في فكرنا، حسب القديس أوغسطين، دون توسط أي مخلوق"(33).

9- تقييم الدليل الحدسي لأوغسطين:

هذا الدليل الحدسي يرفضه بعض الفلاسفة قديما وحديثا، من أمثال القديس توما الأكوني الذي يرى بأنّه من الخطأ الاعتقاد بأنّ معرفة وجود الله معرفة مباشرة وتتم بالبداهة والإيمان، لأنّ القضية ليست بيّنة بنفسها للجميع، أي أنّ محمولها ليس مندرجا في حقيقة موضوعها فهو ليس تصورا واضحا وضوحا قبليا. لذلك فوجود الله مبرهن، أي في حاجة إلى استدلال عقلي (34). فالإنسان في نظره ليس لديه معرفة قبلية بطبيعة الله، فهو لا يصل

إلى معرفة ما بواقعة أنّ ماهية الله هي وجوده، بعد أن يصل إلى معرفة وجود الله لدرجة أنّه حتى على الرغم من أنّ قضية الله موجود هي قضية معروفة بذاتها تبعا لذاتها، ولكنها ليست قضية تعرف بذاتها تبعا لذاتها. فإذا كان وجود الله لا يمكن البرهنة عليه قبليا من خلال فكرة الله، أو من خلال ماهيته، لأنّ ليس للعقل معرفة قبلية بطبيعة الله، فيبقى أنه لابد من البرهنة عليه بطريقة بعدية، من خلال فحص نتائجه وآثاره (35). وهكذا، فإنّ الاختلاف بينهما اختلاف في المنهج وليس في الغاية، أي الاختلاف في طريقة إثبات وجود الله، فهناك من يذهب من الماهية الى الوجود باستخدام البرهان القبلي، وهناك من يذهب من الوجود إلى الماهية باستخدام البرهان البعدي.

أمّا حديثا فقد أكد كانط على امتناع الدليل الأنطولوجي على وجود الله. إذ أنّ أفهوم الكائن ضروري ضرورة مطلقة هو أفهوم عقلي محض، أعني مجرد فكرة ما يزال واقعها الموضوعي بعيدا عن أن تدلل عليه مجرد حاجة العقل إليها. وهي لا تفعل سوى أن تحيلنا إلى كمال لا ينال. فالاستدلال الذي يستدل، من وجود معطى بعامة، على وجود ضروري ضرورة مطلقة، يبدو ملحّا وصائبا، في حين أن كل الشروط التي تطلبها الفاهمة كي تصطنع أفهوما عن مثل هذه الضرورة تقف ضدنا كليا (36).

لكن، وعلى الرغم من ذلك، فإنّ هيجل وفي كتابه حول "أدلة إثبات وجود الله"، يركّز أكثر على الدليل الأنطولوجي الأقرب للصواب في رأيه، فهو يرفض التصور الأكويني للعالم بوصفه عالما ماديا، يجعل من التصور مشروعا وإمكانية فقط. ومنه فالدليل الانطولوجي عند هيجل هو الدليل الوحيد والصحيح والأكمل على وجود الله، وليس الدليل الكوسمولوجي

أو الغائي أو العلّي، لأنه يبدأ في نظره من الذاتية وليس من الموضوعية(37).

خاتمة:

نصل في نهاية بحثنا هذا إلى اعتبار المرحلة الأخيرة من دليل القديس أوغسطين حول إثبات وجود الله انطلاقا من الحقائق الأزلية، مثال للحدس اللاّفت للانتباه. علماً أنّ مبدأ الانتظام لديه يرتب الأشياء فيضع عقلنا في أعلى هذا العالم الحسي. وبعده يستنتج أوغسطين وجود ما فوق هذا العقل، يدركه فكرنا فورا ودون أي واسطة، وهو وجود الله كحقيقة ثابتة وأزلية، لأنّ الله وحده هو الثابت، وما دونه فهو متغير. ويلزم عن ذلك كله أنّ الله موجود، ووجوده هو حقيقته أو عين ماهيته، لأنّنا لا نتصور الله إلاّ وجودا خالصا وكائنا أسمى.

لقد سار القديس "أوغسطين" على النّهج الذي رسمه آباء الكنيسة القدامى، وخاصة القديس "بولس" والقديس "أمبرواز"... كما اختار الفلسفة الأفلاطونية كمرجعية معرفية ومنهجية لمذهبه، لأنها الفلسفة الوحيدة التي تتناسب مع دعائم ميتافيزيقاه، حيث كانت فلسفة للروح وحدسانية أكثر منها عقلانية، فالأفلاطونية المحدثة مثلا تقول باتحاد النفس البشرية باللوغوس، وهي الفكرة الأساسية عند "أوغسطين" القائل بارتقاء الروح وصعودها للمشاركة في الحقائق الإلهية. فجاءت بذلك الأوغسطينية فلسفة الباطنية، والترنسندنتالية والروحانية، القائمة على تأمل الله وعلى معرفة الله ومعرفة الذات.

الهوامش:

1. أوغسطين: اعترافات، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط5، 1996،ص08.
2. المصدر نفسه، ص198.
3. المصدر نفسه، ص104.
4. Saint Anselme: Sur l'existence de dieu (proslogion), librairie philosophique j. vrin, traduction par alexandre koyré, ^{8}ém édition paris , 1992, pp 43-45.
5. Saint Augustin: Dialogues philosophiques. de l'âme à dieu, de magistro, de libero arbitrio, traduction f.j. thonnard ^{2}me édition desclée de brouwer et cie , paris 1952 , pp 221-223
6. Ibid, pp233, 239
7. ibid, pp 239-241.
8. علي زيعور: أوغسطينيوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية، دار اقرأ، بيروت، ط1، 1983، ص146.
9. Saint Anselme: (proslogion),p15.
10. ديكارت: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة، كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط4، 1988 ص 68.
11. المرجع نفسه، ص 68.
12. Saint Augustin: Dialogues philosophiques. de l'âme à dieu, p p 279-287.
13. Ibid, p267.
14. أوغسطين: اعترافات، ص 125.
15. maxence caron : Saint Augustin, les éditions du cerf paris, France, 2009, P 132-139.
16. يسمى باللاّتينية: Dei intuitio.
17. Saint Augustin: Dialogues philosophiques, de l'âme à dieu, de, pp, 521-522.
18. حسن حنفي: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، أوغسطين، أنسلم، توما الأكويني، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2008، ص ص 32-33.
19. أوغسطين: اعترافات، ص176.
20. jacqueline Russ: panorama des idées philosophiques, de Platon aux contemporains, Armand colin, paris, 2013, p96.

21. أوغسطين: اعترافات، ص 218.

22. Gustave Bardy: Saint Augustin, L'homme Et L'œuvre, Desclée de Brouwer et Cie, 7ème édition, paris, 1948, p5009.

يلاحظ أيضا في:

-Saint Augustin: La Trinité (16), Les Images, Traduction, P.A Gaësse, S.J, Edition Desclée De Brouwer, 1955, Paris, p87.

23. Saint Augustin: Mélanges Doctrinaux, (10), traduction, G.bardy, J.A.beckaert, J.boutet, Desclée de Brouwer et Cie, Paris, 1952 p732.

24. أوسكار فيلاسكاز: التجاوب مع النفس واكتشاف الله في اعترافات القديس أوغسطين، ترجمة محمد هناد، (أوغسطين، إفريقيته وعالميته)، ج2، أعمال الملتقى الدولي الأول، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2004، ص ص8-10.

25. اطفال عبرانيون في كتاب النبي دانيال: طلب منهم الملك عبادة الأوثان فرفضوا، فما كان من الملك إلاّ أن قذف بهم في فرن متأجج، فأتى ملاك وأنقذهم.

-Saint Augustin: De L'Ame à Dieu, pp 486-487.

26. كلمة تعني عند أوغسطين الشعر، بينما تعني عند آخرين، القدم، الرأس، الاحذية... والذي يهمنا هو اختيار أوغسطين لمثل يبن لنا من خلاله عجز الكلمة من أن تدلنا على شئ .

- حسن حنفي: نصوص من الفلسفة المسحية في العصر الوسيط، ص ص80-81.

27. Saint Augustin: De L'Ame à Dieu, p103.

28. F. cayré: initiation à la philosophie de saint augustin, desclée de brouwer et cie , paris 1947, p118.

29. Saint augustin: De L'Ame à Dieu, p 101.

30. ibid, p101.

31. Etienne Gilson: introduction à l'étude de Saint augustin, librairie philosophique j. vrin paris, 2me édition 1943, p89.

32. Leibniz: opuscules philosophiques choisis, texte latin et traduction par : p. schrecker, librairie philosophique j. Varin, paris, 2001, pp21-23.

33. Malebranche: de la recherche de la vérité, livres 1-3, librairie philosophique, j. vrin paris 2006 P464.

34. توما الاكويني: الخلاصة اللاهوتية، ج1، ترجمة الخوري بولس عواد، المطبعة الأدبية في بيروت، 1881، ص28.

35. فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة (من أوغسطين إلى دانز سكوت)، ج2، ترجمة، إمام عبد الفتاح إمام، إسحاق عبيد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010، ص ص63-64.

36. ايمانويل كانط: نقد العقل المحض، ترجمة، موسى و هبة، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان،1988، ص296.

37. Hegel: leçons sur la philosophie de la religion, les preuves de l'existence de dieu, traduction Niel. Aubier, paris, 1947, p241.